الباب الأول

طريق الآخرة

١ ــ أهمية الآخرة في التصور الاسلامي

إن قضية البعث قاعدة أساسية في العقيدة الإسلامية ؛ قاعدة تقوم عليها العقيدة، ويقوم عليها التصور الكلي لمقتضيات هذه العقيدة . فالمسلم مطلوب منه أن يقوم على الحق ليدفع الباطل وأن ينهض بالخير ليقضي على الشر وأن يجعل نشاطه كله في الأرض عبادة لله بالتوجه في هذا النشاط كله لله . ولا بد من جزاء للعمل ، وهذا الجزاء قد لايتم في رحلة الأرض فيؤجل للحساب الختامي بعد نهاية الرحلة كلها. فلا بد إذن من عالم آخر ولا بد إذن من بعث للحساب في العالم الآخر . وحين ينهار أساس الآخرة في النفس ينهار معه كل تصور لحقيقة هذه العقيدة وتكاليفها ، ولا تستقيم هذه النفس على طريق الاسلام أبداً .

والإيمان بالبعث والحشر ، وبالحساب والجزاء ، عنصر أصيل في العقيدة لايستقيم منهجها إلا به . فلا بد من عالم مرتقب ، يكمل فيه الجزاء ، ويتناسق فيه العمل والأجر ، ويتعلق به القلب ، وتحسب حسابه النفس ، ويقيم الانسان نشاطه في هذه الأرض على أساس ما ينتظره هناك .

ولقد وقفت البشرية في أجيالها المختلفة ورسالاتها المتوالية موقفاً عجيباً من قضية

البعث والدار الآخرة ، على بساطتها وضرورتها . فكان أعجب ما تدهش له أن ينبئها رسول أن هناك بعثاً بعد الموت وحياة بعد الدثور .. « وقال الذين كفروا أإذا كنا تراباً وآباؤنا أإنا لمخرجون ؟ لقد وُعِدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ، إن هـذا إلا أساطير الأولين » .. ولم تكن معجزة بدء الحياة التي لا تُنكر تلهم البشرية أن الحياة الأخرى أهون وأيسر . ومن ثم كانت تعرض عن نذير الآخرة . وتستمرىء الجحود والمعصية وتستطرد في الكفر والتكذيب .

والآخرة غيب ولا يعلم الغيب إلا الله .. « قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ، وما يشعرون أيان يبعثون ، بل ادّارك علمهم في الآخرة ، بل هم في شك منها ، بل هم منها عمون » .

لقد وقف الانسان منذ بدء الخليقة أمام ستر الغيب المحجوب ، لا ينفذ اليه علمه ، ولا يعرف مما وراء الستر المسدل ، إلا بقدر ما يكشف له منه علام الغيوب . وإن موعد البعث غيب فهم لا يعلمون بهذا الموعد يقيناً ، ولا يشعرون به حـين يقترب شعوراً فذلك من الغيب الذي يقرر أن لا أحـد يعلمه في السموات ولا في الأرض ..

لقد كانت هذه العقدة التي يقف أمامها الذين كفروا دائماً : أإذا فارقنا الحياة ، ورمت أجسادنا وتناثرت في القبور ، وصارت تراباً .. أإذا وقع هذا كله — وهو يقع للموتى بعد فترة من دفنهم إلا في حالات نادرة — أإذا وقع هـذا ولآبائنا الذين ماتوا قبلنا يمكن أن نبعث أحيـاء كرة أخرى ، وأن نخرج من الأرض اختلط رفاتنا بترابها فصار تراباً ؟ .

يقولون هذا وتقف هذه الصورة المادية بينهم وبين تصور الحياة الأخرى . وينسون أنهم خُلقوا أول مرة ولم يكونوا من قبل شيئاً . ولا يدري أحـد أين كانت الخلايا والذرات التي تكونت منها هياكلهم الأولى .

فلقد كانت مفرقة في أطواء الأرض وأعماق البحار وأجواء الفضاء ، فمنها ما جاء

من تربة الأرض ، ومنهـا ما جاء من عناصر الهواء والماء ، ومنها ما قـدم من الشمس البعيدة ، ومنها ما تنفسه إنسان أو نبات أو حيوان ، ومنهـا ما انبعث من جسد رمّ وتبخرت بعض عناصره في الهواء .. ثم تمثلت هذه الخلايا في طعام يأكلونه ، وشراب يشربونه ، وهواء يتنفسونه ، وشعاع يستدفئون به .. ثم إذا هذا الشتيت الذي لا يعلم عدده إلا الله ، ولا يحصي مصادره إلا الله ، يتجمع في هيكل إنسان ، وهو ينمو من بويضة عالقة في رحم ، حتى يصير جسداً مسجى في كفن .. فهؤلاء في خلقتهم أول مرة فهل عجب أن يكونوا كذلك أو على نحو آخر في المرة الآخرة ! ولكنهم كانوا هكذا يقولون . وبعضهم ما يزال يقوله اليوم مع شيء من الاختلاف .

وإنكار الذين كفروا بالآخرة ناشيء من عدم إدراكهم لحكمة الله وتقديره . فحكمة الله لا تترك الناس سدى ، يحسن منهم من يحسن ويسيء منهم من يسيء، ثم لا يلقى المحسن جزاء إحسانه ، ولا يلقى المسيء جزاء إساءته .. « قال الذين كفروا لا تأتينا الساعة . قل بلى وربي لتأتينكم » .. فكل من يدرك الله في خلقه يدرك أن الآخرة ضرورية لتحقيق وعد الله وخبره .. ولكن الذين كفروا محجوبون عن تلك الحكمة. « وقال الذين كفروا : هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مُزِّقتُم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ! افترى على الله كذباً أم به جنّة ؟ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد » ..

هل ندلكم على رجل غريب عجيب ينطق بقول مستنكر بعيد ، حتى ليقول : إنكم بعد الموت والبلى والتمزيق الشديد تخلقون من جديد وتعودون للوجود . فما يقول هـذا الكلام – بزعمهم – إلا كاذب يفتري على الله ما لم يقله .. فهو يهذي أو ينطق بالغريب العجيب ولِمَ هذا كله ؟ لأنه يقول لهم : إنكم سوف تخلقون خلقاً جديداً ! وفيم العجب وهم قد خُلِقوا ابتداءً ؟ إنهم لا ينظرون هـذه النظرة العجيبة الواقعة وعجيبة خلقهم الأول . ولو قد نظروها وتدبروها ما عجبوا أدنى عجب للخلق الجديد ، ولكنهم ضالون لا يهتدون .

إن الذي يعيش بلا عقيدة في الآخرة يعيش في عذاب نفسي لا أمل له ولا رجاء ولا عدل ولا جزاء ، ولا عوض عما يلقاه في الحياة . وفي الحياة مواقف وابتلاءات لا يقوى الانسان على مواجهتها إلا وفي نفسه رجاء الاخرة ، وثوابها للمحسن وعقابها للمسيء ، وإلا ابتغاء وجه الله والتطلع إلى رضاه في ذلك العالم الاخر ، الذي لاتضيع فيه صغيرة ولا كبيرة . والذي يُحرم هذه النافذة المضيئة الندية المريحة يعيش ولا ريب في العذاب كما يعيش في الضلال . يعيش فيها وهو حي على هذه الأرض قبل أن يلقى عذاب الاخرة جزاء على هذا العذاب الذي لقيه في دنياه .

إن الاعتقاد بالآخرة رحمة ونعمة يهبها الله لمن يستحقها من عباده بإخلاص القلب ، وتحري الحق ، والرغبة في الهدى . إن الحياة في نظر الذين لا يؤمنون بالآخرة هي هذا الشوط الذي يرونه في الدنيا رأي العين . جيل يموت وجيل يجيء . وفي ظاهر الأمر لا تمتد اليهم يد الموت ، إنما هي الأيام تمضي ، والدهر ينطوي ، فإذا هم أموات، فالدهر إذن هو الذي ينهي آجالهم ، ويلحق بأجسامهم الموت فيموتون .. « وقالوا : ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون » وهي نظرة سطحية لا تتجاوز المظاهر ، ولا تبحث عما وراءها من أسرار . وإلا فمن أين جاءت إليهم الحياة ، وإذا جاءت فمن ذا يذهب بها عنهم ، والموت لا ينال الأجسام وفق نظام محدود وعدد من الأيام معين ، حتى يظنوا أن مرور الأيام هو الذي يسلبهم الحياة . فالأطفال يموتون كالشيوخ ، والأصحاء يموتون كالمرضى ، والأقوياء يموتون كالضعفاء . ولا يصلح الدهر إذن تفسيراً للموت عند من ينظر إلى الأمر نظرة فاحصة ويحاول أن يعرف وأن يدرك حقيقة الأسباب . إنهم يظنون ظناً واهياً ، لا يقوم على تدبر ولا يستند إلى علم .

٢ – حقيقة الآخرة وأثرها في النفس الانسانية

ما أقصر الحياة الدنيا وما أضيفها حين تحس النفس الانسانية أنها لا تتصل بحياة سواها ، ولا تطمع في غير أنفاس وساعات على الأرض معدودة .

إن الإيمان بالحياة الآخرة نعمة . نعمة يفيضها الإيمان على القلب . نعمة يهبها الله للفرد الفاني ، المحدود الأجل الواسع الأمل . وما يغلق أحد على نفسه هـذا المنفذ إلى الخلود ، إلا وحقيقة الحياة في روحه ناقصة أو مطموسة . فالإيمان بالآخرة ــ فوق أنه إيمان بعدل الله المطلق وجزائه الأوفى ــ هو ذاته دلالة على فيض النفس بالحيوية ، وعلى امتلاء بالحياة لا يقف عند حدود الأرض ؛ إنما يتجاوزها إلى البقاء الطليق ، الذي لا يعلم إلا الله مداه ، وإلى المرتقى السامي الذي يتجه صعداً إلى جوار الله .

والإعتقاد بالآخرة يؤدي دوره الأساسي في إفاضة السلام على روح المؤمن وعالمه ونفي القلق والسخط والقنوط .. إن الحساب الختامي ليس في هذه الأرض ، والجزاء الأوفى ليس في هذه العاجلة .. إن الحساب الختامي هناك ، والعدالة المطلقة مضمونة في هذا الحساب . فلا ندم على الخير والجهاد في سبيله إذا لم يتحقق في الأرض أو لم يلق جزاءه ، ولا قلق على الأجر إذا لم يوف في هذه العاجلة بمقاييس الناس ، فسوف يوفّاه بميزان الله . ولا قنوط من العدل إذا توزعت الحظوظ في الرحلة القصيرة على غير ما يريد ، فالعدل لابد واقع . وما الله يريد ظلماً للعباد . والإعتقاد بالآخرة حاجز كذلك دون الصراع المجنون المحموم الذي تداس فيه القيم وتداس فيه الحرمات ، بلا تحرج ولا حياء . فهناك الآخرة فيها عطاء ، وفيها غناء ، وفيها عوض عما يفوت . وهذا التصور من شأنه أن يفيض السلام على مجال السباق والمنافسة ، وأن يخفف السعار الذي ينطلق من الشعور بأن الفرصة الوحيدة المتاحة هي فرصة هـذا العمر القصير المحدود .

إن القرآن يلمس القلب البشري لمسة قوية ، إذ يدرك أنه مستخلف في ملك أزيل من مالكيه الأوائل وأجلي عنه أهله الذين سبق لهم أن مكنوا فيه ، وأنه هو بدوره زائل عن هذا الملك .. يقول ــ سبحانه ــ : .. « ثم جعلناكم خلائف في في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون » ..

إنها أيام يقضيها الانسان فيه ، ممتحناً بما يكون منه ، مبتلى بهذا الملك ، محاسباً

على ما يكسب بعد بقاء فيه قليل .. إن هـذا التصور الذي ينشئه الإسلام في القلب البشري .. فوق أنه يرى الحقيقة فلا تخدعه عنها الخدع يظل يثير فيه يقظة وحساسية وتقوى ، هي صمام الأمن له وصمام الأمن للمجتمع الذي يعيش فيه .

إن شعور الانسان أنه مبتلى وممتحن بأيامه التي يقضيها على الأرض ، وبكل شيء يملكه ، وبكل متاع يتاح له ، يمنحه مناعة ضد الاغترار والانخداع والغفلة ، ويعطيه وقاية من الاستغراق في متاع الدنيا ومن التكالب على هذا المتاع الذي هو مسؤول عنه وممتحن فيه وإن شعوره بالرقابة التي تحيط به والتي يصورها قول الله — سبحانه — : .. « لننظر كيف تعملون » .. ليجعله شديد التوقي ، شديد الحذر ، شديد الرغبة في الاحسان وفي النجاة أيضاً من هذا الامتحان !

وهذا هو مفرق الطريق بين التصور الذي ينشئه الاسلام في القلب البشري بمثل هـذه اللمسات القوية ، والتصورات التي تحرج الرقابة الإلهية والحساب الأخروي من حسابها !.. فإنه لا يمكن أن يلتقي اثنان أحدهما يعيش بالتصور الاسلامي والآخر يعيش بتلك التصورات القاصرة .. لا يمكن أن يلتقي في تصوره للحياة ، ولا في خلق ، ولا في حركة ، كما لا يمكن أن يلتقي نظـامان إنسانيان يقوم كل منهما على قاعدة من هاتين القاعدتين اللتين لا تلتقيان !

والحيـاة في الاسلام حياة متكاملة القواعد والأركان . ويكفي أن نذكر فقط مثل هذه الحقيقة الأساسية في التصور الاسلامي وما ينشأ عنهـا من آثار في حركة الفرد والجماعة .. وهي من ثم لا يمكن خلطها بحياة تقوم على غير هذه الحقيقة ، ولا بمنتجات هذه الحياة أيضاً .

والاعتقاد باليوم الاخر ضروري لاكتمال الشعور بأن وراء الحياة حكمة ، وأن الخير الذي تدعو إليه الرسالات هو غاية الحياة ، ومن ثم لا بد أن يلقى جزاءه ، فإن لم يلقه في هذه الحياة الدنيا فجزاؤه مضمون في العالم الآخر ، الذي تصل فيه الحيـاة البشرية إلى الكمال المقدر لهـــا . أما الذين يزيغون عن منهج الله وحكمته في الحياة فهؤلاء يرتكسون وينتكسون إلى درك العذاب .. وفي هـذا ضمان للفطرة السليمة

ألا تنحرف . فإن غلبتها شهوة أو استبد بها ضعف عادت تائبة ، ولم تلج في العصيان . ومن ثم تصلح هذه الأرض لحياة البشر ، وتمضي الحيـــاة على سنتها في طريق الخير . فالاعتقاد باليوم الآخر ليس طريقاً للثواب في الحياة الآخرة فحسب — كما يعتقد بعض الناس — إنما هو الحافز على الخير في الحياة الدنيا . والحافز على إصلاحها وإنمائها . على أن يراعى في هذا النماء أنه ليس هدفاً في ذاته ، وإنما هو وسيلة لتحقيق حياة لائقة بالانسان الذي نفخ الله فيه من روحه ، وكرّمه على كثير من خلقه ، ورفعه عن درك الحيوان ، لتكون أهداف الحياة أعلى من ضرورات الحيوان ، ولتكون دوافعه وغاياته أرفع من دوافع الحيوان وغاياته . وهكذا ترتبط الدنيا بالآخرة ، والمبدأ بالمصير ، والعمل بالجزاء ، والتي تشعر الانسان أنه ليس لقى مهملاً ، وأنه لم يخلق عبثاً . ولن يترك سدى ، وإن العدالة المطلقة في انتظاره ، ليطمئن قلبه ، ويفيء إلى إلى العمل الصالح ، وإلى عدل الله ورحمته في نهاية المطاف .

واليقين بالآخرة هو مفرق الطريق بين من يعيش بين جدران الحس المغلقة ، ومن يعيش في الوجود المديد الرحيب . بين من يشعر أن حياته على الأرض هي كل ماله في هذا الوجود ، ومن يشعر أن حياته على الأرض ابتلاء يمهد للجزاء ، وأن الحياة الحقيقية إنما هي هنالك ، وراء هذا الحيز الصغير المحدود . وكل صفة من هذه الصفات ذات قيمة في الحياة الانسانية . ومن ثم كانت هي صفة من صفات المؤمنين .

وهنالك تساوق وتناسق بين صفات المؤمنين جميعاً ، هو الذي يؤلف منها وحدة متناسقة متكاملة يقول الله سبحانه : « ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » .

فالتقوى شعور في الضمير ، وحالة في الوجدان ، تنبثق منها اتجاهات وأعمال ، وتتوحد بها المشاعر الباطنة والتصرفات الظاهرة ، وتصل الانسان بالله في سره وجهره . وتشف معها الروح فتقل الحجب بينهـــا وبين الكُلّي الذي يشمل عالمي الغيب والشهادة ، ويلتقي فيه المعلوم والمجهول . ومتى شفّت الروح وانزاحت الحجب بين

الظاهر والباطن ، فإن الايمان بالغيب عندئذ يكون هو الثمرة الطبيعية لإزالة الحجب الساترة ، واتصال الروح بالغيب والاطمئنان إليه . ومع التقوى والايمان بالغيب عبادة الله في الصورة التي اختارها ، وجعلها صلة بين العبد والربّ . ثم اليقين بالاخرة بلا تردد ولا تأرجح في هذا اليقين .

واليقـــين بالآخرة هو الضمان ليقظة القلب البشري وتطلعه إلى ما عند الله ، واستعلائه على أوهاق الأرض ، وترفعه على متاع الدنيا ، ومراقبة الله في السر والعلن وفي الدقيق والجليـل ، والوصول إلى درجة الاحسان التي سُئل عنها رسول الله ﷺ فقال : « الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .. وقال تعالى : « ألم تلك آيات الكتاب الحكيم هدى ورحمة للمحسنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون » .

تصـور .. وتصـور

إن الايمـــان بالاخرة والتصديق بيوم الدين ترسم خطاً أساسياً في ملامح النفس المؤمنة يقول سبحانه عن المؤمنين : « والذين يصدقون بيوم الدين » . فالتصديق بيوم الدين شطر الايمان وهو ذو أثر حاسم في منهج الحياة شعوراً وسلوكاً . والميزان في يد المصدق بيوم الدين غير الميزان في يد المكذب بهذا اليوم أو المستريب فيـه . ميزان الحياة والقيم والأعمال والأحداث .

المصدق بيوم الدين يعمل وهو ناظر لميزان السماء لا لميزان الأرض ، ولحساب الاخرة لا لحساب الدنيا . ويقبل الأحداث خيرها وشرها وفي حسابه أنها مقـدمات ، نتائجها هناك ، فيضيف إليها النتائج المرتقبة حين يزنها ويقومها .

والمكذب بيوم الدين يحسب كل شيء بحسب ما يقع له منه في هذه الحياة القصيرة المحدودة ، يتحرك وحدوده هي حدود هذه الأرض وحدود هذا العمر . ومن ثم يتغير حسابه وتختلف نتائج موازينه ، وينتهي إلى نتائج خاطئة فوق ما ينظر في مساحة من المكان ومساحة من الزمان محدودة ، وهو بائس مسكين معذب قلق لأن ما يقع في

هذا الشطر من الحياة يحصر فيه تأملاته وحساباته وتقديراته ، وقد لايكون مطمئناً ولا مريحاً ولا عادلاً ولا معقولاً مالم يضف إليه حساب الشطر الآخر ، وهو أكبروأطول ومن ثم يشقى به من لا يحسب حساب الآخرة أو يشقي غيره من حوله . ولا تستقيم له حياة رفيعة لا يجد جزاءها في هذه الأرض واضحاً . ومن ثم كان التصديق باليوم الآخر شطر الايمان الذي يقوم عليه منهج الحياة في الاسلام .

ودرجة أخرى وراء مجرد التصديق بيوم الدين « والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ، إن عذاب ربهم غير مأمون » .

درجة الحساسية المرهفة ، والرقابة اليقظة ، والشعور بالتقصير في جناب الله على كثرة العبادة ، والخوف من تلفت القلب واستحقاقه للعذاب في أية لحظة ، والتطلع إلى الله للحماية والوقاية .

ولقد كان رسول لله ﷺ — وهو من عند الله — وهو يعرف أن الله قد اصطفاه ورعاه . كان دائم الحذر دائم الخوف لعذاب الله ، وكان على يقين أن عمله لا يعصمه ولا يدخله الجنة إلا بفضل من الله ورحمته . وقال لأصحابه : « لن يُدخل الجنة أحداً عملُه . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته »[1].

والله لا يطلب من الناس إلا هذه اليقظة وهذه الحساسية ، فإذا غلبهم ضعفهم معها ، فرحمته واسعة ، ومغفرته واضحة . وباب التوبة مفتوح ليس عليه مغاليق ! وهذا هو قوام الأمر في الاسلام بين الغفلة والقلق . والاسلام غير هذا وتلك . والقلب الموصول بالله يحذر ويرجو ، ويخاف ويطمع ، وهو مطمئن لرحمة الله على كل حال .

والمؤمن أبداً في خوف من الآخرة ، يقول الله سبحانه : « أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه » .

إنها صورة القلب الخائف الوجل الذي يذكر الله ولا ينساه في السراء والضراء، والذي يعيش حياته على الأرض في حذر من الآخرة ، وفي تطلع إلى رحمة ربه وفضله. وهذه الحساسية المرهفة — وهو يحذر الاخرة ويرجو رحمة ربه — وهذا الصفاء وهذه

---

(١) رواه الشيخان والنسائي .

الشفافية التي تفتح البصيرة ، وتمنح القلب نعمة الرؤية والالتقاط والتلقي . هـذه كلها ترسم صورة مشرقـة مضيئة من البشر . إنه القنوت لله وحساسية القلب ، واستشعار الحذر من الآخرة ، والتطلع إلى رحمـة الله وفضله ، ومراقبة الله هذه المراقبة الواجفة الخاشعة . هذا هو الطريق .

إن الايمان بالآخرة هو أحد مقتضيات الايمان بالله وفق التصور الاسلامي. فالمصير اليه في كل عمل . فلا ملجأ من الله إلا اليه ، ولا عاصم من قدَره ، ولا مرد لقضائه ولا نجاة من عقابه إلا برحمته وغفرانه . والمؤمن أبداً في خوف من عذاب الله يوم القيامة في وجل من ناره يناديه : « فَقِنا عذاب النار » .

إن إدراك الحق في تصميم هذا الكون وفي ظواهره ، معناه ـ عند أولي الألباب ـ أن هناك تقديراً وتدبيراً ، وأن هناك حكمة وغاية ، وأن هناك حقاً وعـــدلاً وراء حياة الناس في هذا الكوكب . ولا بد إذن من حساب ومن جزاء على ما يقوم الناس من أعمال ، ولا بد إذن من دار غير هـذه الدار يتحقق فيها الحق والعدل في الجزاء . لذا يتجهون إلى ربهم ليقيهم عذاب النار .

إنها تشي بأن خوفهم من النار ، إنما هو خوف — قبـل كل شيء — من الخزي الذي يصيب أهل النـار . وهذه الرجفة التي تصيبهم هي أولاً رجفة الحياء من الخزي الذي ينال أهل النار ، فهي ارتجافة باعثها الأكبر الحياء من الله ، فهي أشد حساسية به من لذع النار ! كما أنها تشي بشعورهم القوي بأنه لا ناصر من الله ، وأن الظالمين مالهم من أنصار .

والايمان باليوم الآخر هو الايمان بالعدالة الإلهية المطلقة في الجزاء ، وبأن حياة الانسان على هذه الأرض ليست سدى ولا فوضى بغير ميزان . وبأن الخير لا يعدم جزاءه ولو بدا أنه في هذه الأرض لا يلقى الجزاء .

وشعور الانسان بأن خالقه محاسبه في الآخرة ومجازيه بغير من تصوراته ومن حوافزه ومن أهدافه ، ويربط الحاسة الأخلاقيـــة في نفسه بمصيره كله ، فيزيدها قوة وفاعلية . لأن هلاكه أو نجاته مرهونة بيقظة هذه الحاسة وتأثيرها في نيته وعمله . ومن

ثم يقوى الانسان ويسيطر على تصرفات هذا الكائن ، لأن الرقيب الحارس قد استيقظ ولأن الحساب الختامي ينتظره هناك . ومن الناحية الأخرى فهو مطمئن إلى الخير واثق من انتصاره في الحساب الختامي .

إنها مسألة كبيرة هذا الايمان والايمان بالآخرة . مسألة أساسية في حياة البشر . إنها حاجة أكبر من حاجات الطعام والشراب والكساء . وانها إما أن تكون فيكون « الانسان » وإما ألا تكون فهو حيوان من ذلك الحيوان .

وحين تفترق المعايير والأهداف والغايات وتصور الحياة كلها هذا الاختلاف ، فلا مجال حينئذ إلى مشاركة أو تعامل أو حتى تعارف ينشأ عنه قسط من الاهتمام . ومن ثم لا يمكن أن تقوم علاقة أو صحبة أو شركة أو تعارف ، أو أخذ وعطاء ، أو اهتمام واحتفال بين مؤمن بالله ، وآخر أعرض عن ذكره ولم يرد إلا الحياة الدنيا . وكل قول غير هذا فهو محال ومراء ، يخالف عن أمر الله : « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يُرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم » .

وهو موجه ابتداء إلى الرسول ﷺ - وهو موجه بعد ذلك إلى كل مسلم يواجهه من تولى عن ذكر الله ويعرض عن الايمان به ، ويجعل وجهته الحياة الدنيا وحدها ، لاينظر إلى شيء وراءها ، ولا يؤمن بالآخرة ولا يحسب حسابها . ويرى أن حياة الانسان على هذه الأرض هي غاية وجوده ، لا غاية بعدها ، ويقيم منهجه في الحياة على هذا الاعتبار ، فيفصل ضمير الانسان عن الشعور بإله يدبر أمره ، ويحاسبه على عمله ، بعد رحلة الأرض المحدودة

والمؤمن بالله وبالاخرة لايستطيع أن يشغل باله - فضلاً على أن يعامل أو يعايش - من يُعرض عن ذكر الله ، وينفي الآخرة من حسابه ، لأن لكل منهما منهجاً في الحياة لا يلتقيان في خطوة واحدة من خطواته ، ولا في نقطة واحدة من نقاطه . وجميع مقاييس الحياة ، وجميع قيمها ، وجميع أهدافها ، تختلف في تصور كل منهما ، فلايكن إذن أن نتعاونا في الحياة أي تعاون ، ولا أن يشترك في أي نشاط على هذه الأرض .

مع هذا الاختلاف الرئيسي في تصور قيم الحياة وأهدافها ومناهج النشاط فيها ،

وغاية هذا النشاط ، وما دام التعاون والمشاركة متعذرين فما داعي الاهتمام والاحتفال ؟

إن المؤمن يعبث حين يحفل شأن هؤلاء الذين يعرضون عن ذكر الله ولا يريدون إلا الحياة الدنيا . وينفق طاقته التي وهبها الله إياها في غير موضعها .

٣ ــ قدرة الله على الحياة الأخرى

لقد كانت قضية البعث دائماً هي مشكلة العقيدة عند كثير من الأقوام منذ أن أرسل الله رسله للناس ، يأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر ، ويخوفونهم حساب الله يوم البعث والحساب ، يقول الله سبحانه : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، بلى وعداً عليه حقاً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » .

إنهم يرون هذا البعث أمراً عسيراً بعد الموت والبلى وتفرق الأشلاء والذرات . وغفلوا عن معجزة الحياة الأولى .. وغفلوا عن طبيعة القدرة الالهية ، وأنها لا تقاس إلى تصورات البشر وطاقتهم ، وأن إيجاد شيء لا يكلف تلك القدرة شيئاً فيكفي أن تتوجه الارادة إلى كون الشيء فيكون .

إن قضية البعث إحدى قضايا العقيدة الاسلامية التي لقيت جدلاً شديداً في كل عصر ومع كل رسول . وهي غيب من غيب الله الذي يختص بعلمه . « ولله غيب السموات والأرض . وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب . إن الله على كل شيء قدير » .

إن البشر يقفون أمام أستار الغيب عاجزين قاصرين ، مهما يبلغ علمهم الأرضي . وإن أعلم العلماء من البشر ليقف مكانه لا يدري ما ذا سيكون اللحظة التالية في ذات نفسه . أيرتد نفسه الذي خرج أم يذهب فلا يعود ! وتذهب الآمال بالانسان كل مذهب وقدره كامن خلف ستار الغيب لا يدري متي يفجؤه ، وقد يفجؤه اللحظة والساعة من هذا الغيب المستور . ولو علم الناس موعدها لتوقفت عجلة الحياة أو اختلت

ولما سارت الحياة وفق الخط الذي رسمته لها القدرة ، والناس يعدون السنين والأيام والشهور والساعات واللحظات لليوم الموعود . « وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب » فهي قريب ، ولكن في حساب غير حساب البشر المعلوم . وتدبير أمرها لا يحتاج إلى وقت . طرفة عين ، فإذا هي حاضرة مهيأة بكل أسبابها . وبعث هذه الحشود التي يخطئها الحصر والعد من الخلق ، وانتفاضها وجمعها ، وحسابها وجزاؤها ، كله هين على تلك القدرة التي تقول للشيء : « كن فيكون » . إنما يستهول الأمر ويستصعبه من يحسبون بحساب البشر ، وينظرون بعين البشر ، ويقيسون بمقاييس البشر ، ومن هنا يخطئون التصور والتقدير .

يقول الامام الغزالي [1] : إياك أن تنكر شيئاً من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس ما في الدنيا ، فإنك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ، ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشد إنكاراً لها ، وفي طبع الآدمي ! إنكار كل ما لم يأنس به !

ولو لم يشاهد الانسان الحيّة وهي تمشي على بطنها كالبرق الخاطف لأنكر تصور المشي على غير رجل ، والمشي بالرجل أيضاً مستبعد عند من لم يشاهد ذلك. ولو لم يشاهد الانسان توالد الحيوان ، وقيل له : إن له صانعاً يصنع من النطفة القذرة مثل هذا الآدمي ، المصور ، العاقل ، المتكلم ، المتصرف ، لاشتد نفور باطنه عن التصديق به.

ففي خلق الآدمي مع كثرة عجائبه واختلاف تركيب أعضائه أعاجيب تزيد على الأعاجيب في بعثه وإعادته ، فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من يشاهد ذلك في صنعته وقدرته ! فإن كان في إيمانك ضعف فقوّ الايمان بالنظر في النشأة الأولى ، « أيحسب الانسان أن يترك سدى ؟ ألم يك نطفة من مَنيّ يمنى ؟ ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى . أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى » بلى إن الله على كل شيء قدير .

يقول الله سبحانه : « وقالوا أإذا كنا عظاماً ورفاتاً أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً ؟

---

(١) الاحياء ١٦ : ٢٥ و ٣٠ .

قل : كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم . فسيقولون : من يعيدنا؟ قل : الذي فطركم أول مرة فسينغضون اليك رؤوسهم ، ويقولون متى هو . قل عسى أن يكون قريباً ، يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا » .

وقد كانت قضية البعث مثار جـــدل طويل بين الرسول ﷺ والمشركين مع بساطة هذه القضية ووضوحها عند من يتصور طبيعة الحياة والموت ، وطبيعة البعث والحشر .

إن النشأة الآخرة ليست أعسر من النشأة الأولى ، وإنه لا شيء أمام القدرة الالهية أعسر من شيء . وأداة الخلق واحدة في كل شيء « كن فيكون » فيستوي أن يكون الشيء سهلاً وأن يكون صعباً في نظر الناس متى توجهت الإرادة الإلهية إليه . والله سبحانه يرد على هؤلاء بعجب : « قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم » والعظام والرفات فيها رائحـــة البشرية وفيها ذكرى الحياة ، والحديد والحجارة أبعد عن الحياة ، فيقال لهم : كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر أوغل في البعد عن الحياة من الحجارة والحديد مما يكبر في صدوركم أن تتصوره وقد نفخت فيه الحياة . فسيبعثكم الله ، وهم لا يملكون أن يكونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر ولكنه قول للتحدي ، وفيه كذلك ظل التقريع والتوبيخ ، فالحجارة والحديد جماد لا يحس ولا يتأثر ، وفي هذا إيماء من بعيد إلى ما في تصورهم من جمود وتحجر ... يقولون من يعيدنا ؟ من يردنا إلى الحياة إن كنا رفاتاً وعظاماً ، أو خلقاً آخر أشد إيغالاً في الموت والخمود . فيرد عليهم بأن يرجع المشكلة إلى تصور بسيط واضح مريح . فالذي أنشأهم إنشاءً قادر على أن يردهم أحياءً ولكنهم لا ينتفعون به ولا يقتنعون .. ويقولون متى هو ؟ استبعاداً لهذا الحادث واستنكاراً .

واليوم قريب حيث يبعث هؤلاء وقد قاموا يلبون دعوة الداع وتنطوي الحياة الدنيا كما ينطوي الظل فإذا هي قصيرة قصيرة ، لا يبقى من ظلالها في النفس ، وصورها في الحس ، إلا أنها مرت . وعهد زال ، وظل تحول ، ومتاع قليل . « وتظنون إن لبثتم إلا قليلا » .

إن معجزة الحياة ذات طبيعة واحدة ، من وراء أشكالها وصورها وملابساتها .

وكما يخرج الله الحياة من الموات في هذه الأرض ، فكذلك يخرج الحياة من الموتى في نهاية المطاف . « وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون » .

إن المشيئة التي تبث الحياة في صور الحياة وأشكالها في هذه الأرض ، هي المشيئة التي ترد الحياة في الموات . وإن القدر الذي يجري بإخراج الحياة من الموات في الدنيا ، لهو ذاته القدر الذي يجري بجريان الحياة في الموتى مرة أخرى . .

ولكن الغفلة عن النشأة الأولى تستهول هذا الأمر بقول سبحانه : « ويقول الانسان : أإذا ما متُّ لسوف أخرج حيا ؟ » . . إنه اعتراض منشؤه غفلة الانسان عن نشأته الأولى . فأين كان ؟ وكيف كان ؟ إنه لم يكن ثم كان ، والبعث أقرب إلى التصور من النشأة الأولى لو أنه تذكر . . « أوَلا يذكر الانسان أنّا خلقناه من قبل ولم يَكُ شيئاً » . .

والله سبحانه يقسم قسماً تهديدياً . يقسم الله تعالى بنفسه . وهو أعظم قَسَمٌ وأجلّه ، أنهم سيحشرون بعد البعث فهذا أمر مفروغ منه : « فوربّك لنحشرنّهم » . . ولن يكونوا وحدهم فلنحشرنّهم والشياطين . فهم والشياطين سواء والشياطين هم الذين يوسوسون بالانكار ، وبينهما صلة التابع والمتبوع ، والقائد والمقود .

إن القرآن الكريم يخاطب فطرة الناس في أمر البعث يقول الله سبحانه : « يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنّا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مُخلّقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مُسمى ثم نخرجكم طفلاً ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يُتوفى ، ومنكم من يُردُّ إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً . وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يُحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور » .

أم إن الناس في ريب من البعث ؟ وفي شك من زلزلة الساعة ؟ إن كانوا يشكون في إعادة الحياة فليتدبروا كيف تنشأ الحياة ، ولينظروا في أنفسهم ، وفي الأرض من حولهم ، حيث تنطق لهم الدلائل بأن الأمر مألوف ميسور ، ولكنهم هم الذين يمرون على الدلائل في أنفسهم وفي الأرض غافلين . .

إن البعث إعادة لحياة كانت ، فهو في تقدير البشر — أيسر من إنشاء الحياة . وإن لم يكن — بالقياس إلى قدرة الله — شيء أيسر ولا شيء أصعب . فالبدء كالاعادة أثر لتوجه الإرادة . . « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » . .

ولكن القرآن يأخذ البشر بمقاييسهم ، ومنطقهم وإدراكهم ، فيوجه قلوبهم إلى تدبر المشهود المعهود لهم ، وهو يقع لهم في كل لحظة ، ويمر بهم في كل برهة ، وهو من الخوارق لو تدبروه بالعين البصيرة ، والقلب المفتوح ، والحس المدرك . ولكنهم يمرون به أو يمر بهم دون وعي ولا انتباه .

فما هؤلاء الناس ؟ وما لهم ؟ من أين جاءوا ؟ وكيف كانوا ؟ وفي أي الأطوار مروا ؟ . . . « فإنا خلقناكم من تراب » والانسان إبن هذه الأرض ، من ترابها نشأ ومن ترابها تكوّن ، ومن ترابها عاش ، وما في جسمه من عنصر إلا له نظيره في عناصر أمه الأرض ، اللهم إلا ذلك السر اللطيف الذي أودعه الله إياه ونفخه فيه من روحه ، وبه افترق عن عناصر ذلك التراب ، ولكنه أصلاً من التراب عنصراً وهيكلاً وغذاء . وكل عناصره المحسوسة من ذلك التراب . ولكن أين التراب وأين الانسان ؟ أين تلك الذرات الأولية الساذجة من ذلك الخلق المسوى المركب ، الفاعل المستجيب ، المؤثر المتأثر ، الذي يضع قدميه على الأرض ، ويرف بقلبه إلى السماء ، ويحلق بفكره فيما وراء المادة كلها ومنها ذلك التراب .

والمسافة بين عناصر التراب الأولية الساذجة والنطفة المؤلفة من الخلايا المنوية الحية ، مسافة هائلة ، تضمر في طياتها السر الأعظم ، سر الحياة . السر الذي لم يعرف البشر عنه شيئاً يذكر ، بعد ملايين الملايين من السنين ، وبعد ما لا يحصى من تحول العناصر الساذجة إلى خلايا حية في كل لحظة من لحظات الملايين ، والذي لا سبيل إلا أكثر من

ملاحظته وتسجيله ، دون التطلع إلى خلقه وإنشائه ، مهما طمح الانسان ، وتعلق بأهداب المحال . ثم يبقى بعد ذلك سر تحول تلك النطفة إلى علقة ، وتحول العلقة إلى مضغة وتحول المضغة إلى إنسان . . فمن يتصور أو يصدق أن ذلك كله كامن في تلك النقطة العالقة ؟ وإن هذه النقطة الصغيرة الضئيلة هي هذا الانسان المعقد المركب ، الذي يختلف كل فرد من جنسه عن الاخر ، فلا يتماثل إثنان في هذه الأرض في جميع الأزمان . ألا إنها المسافة التي لا يعتبرها الفكر الواعي إلا وقد وقف خاشعاً أمام آثار القدرة القادرة مرات ومرات . فدلالة هذه الأطوار على البعث تدل من ناحية أن القادر على الإنشاء قادر على الإعادة .

إن الغافلين المطموسين لا يمكن أن يدركوا حكمة الحياة الكبرى ، ودقة التدبير في أطوارها للوصول إلى غايتها البعيدة ، هذه الغاية التي لا تتحقق بكمالها في هذه الأرض . فالخير لا يلقى جزاءه الكامل في الحياة الدنيا ، والشر كذلك . إنما يستكمل هذا الجزاء هنالك ، حيث يصل المؤمنون الصالحون إلى قمة الحياة المثلى ، التي لا خوف فيها ولا نصب ، ولا تحول فيها ولا زوال — إلا أن يشاء الله — ويصل المرتكسون المنتكسون إلى درك الحياة السفلية التي تهدر فيها آدميتهم ، ويرتدون فيها أحجاراً ، أو كالأحجار . يقول سبحانه عن هؤلاء الغافلين : « أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون ؟ هيهات هيهات لما توعدون : إن هي إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما نحن ببعوثين » .

مثل هؤلاء لا يدركون معاني الحياة ، ولا يستدلون من أطوار الحياة الأولى على أطوارها الأخيرة ، ولا ينتبهون إلى أن القوة المدبرة لتلك الأطوار لا تقف بالحياة عند مرحلة الموت والبلى كما يظنون . . لذلك هم يستعجبون من ذلك الذي يعدهم أنهم مخرجون ، ويستبعدون في جهالة أن ذلك يكون ، ويجزمون في تبجح بأن ليس هنالك إلا حياة واحدة وموت واحد . يموت جيل ويجيء بعده جيل . فأما الذين ماتوا وصاروا تراباً وعظاما ، فهيهات هيهات الحياة لهم ! وهيهات وهيهات البعث الذي يعدهم به ، وقد صاروا عظاماً ورفاتاً .

إنها حقيقة بسيطة واضحة .. « الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون » .. حقيقة بسيطة واضحة ، والترابط بين جزئيها أو بين حلقتيها واضح كذلك . فالاعادة كالبدء لا غرابة فيها . وهما حلقتان في سلسلة النشأة ، مترابطتان لا انفصام بينهما . والرجعة في النهاية إلى ربّ العالمين ، الذي أنشأ النشأة الأولى والنشأة الآخرة لتربية عباده ورعايتهم ومجازاتهم في النهاية على ما يعملون .

إن الاسلام يوضح هذا الموضوع بالبساطة وبمنطق الفطرة يقول الله سبحانه : « أَوَلَمْ يَرَ الانسان أنّا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضَرَب لنا مثلاً ونسي خلقه قال : من يُحيي العظام وهي رميم ، قل : يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . » .

فما النطفة التي لا يشك الانسان في أصله القريب ؟ إنها نقطة من ماء مهين ، لا قوام ولا قيمة ! نقطة من ماء تحوي ألوف الخلايا .. خلية واحدة من هذه الألوف هي التي تصير جنيناً ، ثم تصير هذا الانسان الذي يجادل ربه ويخاصمه ويطلب منه البرهان والدليل . والقدرة الخالقة هي التي تجعل من هذه النطفة الخصم المبين . وما أبعد النقلة بين المنشأ والمصير ! فهذه القدرة يستعظم الانسان عليها أن تعيده وتنشره بعد البلى والدثور ؟

يا للبساطة ! ويا لمنطق الفطرة ! ومنطق الواقع القريب المنظور ! وهل تزيد النطفة حيوية أو قدرة أو قيمة على العظم الرميم المفتوت ؟ أوليس من تلك النطفة كان الإنسان ؟ أوليست هذه هي النشأة الأولى ؟ أوليس الذي حوّل تلك النطفة إنساناً ، وجعله خصيماً مبيناً بقادر على أن يحول العظم الرميم مخلوقاً حياً جديداً ؟ إن الأمر أيسر وأظهر من أن يدور حوله سؤال ، فما بال الجدل الطويل ؟ . « قل يُحييها الذي أنشأها وهو بكل خلق عليم » .. « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » .

إن الله - سبحانه - يخلق بلا كلفة ولا جهد ولا يختلف بالقياس إليه خلق الكبير وخلق الصغير .. يكون هذا الشيء سماء أو أرضاً ، ويكون بعوضة أو نملاً .

هـذا وذاك سواء أمام الكلمة .. كن .. فيكون ! ليس هنـاك صعب ولا سهل . وليس هنـالك قريب ولا بعيد .. فـتُوجهُ الارادة لخلق الشيء كاف وحده لوجوده كائناً ما يكون . إنما يقرب الله للبشر الأمور ليدركوها بمقيـاسهم البشري المحدود . وقفوا يستبعدون على هذه القدرة أن تعيدهم إذا ماتوا وصاروا تراباً وعظاما ! وما في هذا البعث والإعادة من غريب على تلك القدرة ولا بعيد ، لمن يتأمل هـــذا الواقع ويتدبره أقل تدبير . « أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون » « قل نعم وأنتم داخرون » .

ثم ستبعثون أنتم وآباؤكم الأولون ، ستبعثون وأنتم داخـــرون ، ذلولون ، مستسلمون ، غير مستعصين ولا متأبين . نعم « فإنما هي زجوة واحدة فإذا هم ينظرون » هكذا في ومضة خاطفة بمقدار ما تنبعث صيحة واحدة . تسمى زجرة للدلالة على لون من الشدة فيها ، والعنف في توجيهها ، والاستعلاء في مصدرهـا .. فاذا هم ينظرون .. فجأة وبلا تمهيد أو تحضير ، وإذا هم يصيحون مبهوتين . « قالوا يا ويلنا هذا يوم الدين » وبينما هم في بهتتهم وبغتتهم إذا صوت يحمل اليهم التقريع من حيث لا يتوقعون « هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون » .

لقد كانت المشكلة الشعورية عند المشركين هو صعوبة تصورهم لجمع العظام البالية الذاهبة في التراب ، المتفرقـة في الثرى ، لاعادة بعث الانسان حياً ! ولعلها لا تزال كذلك في بعض النفوس إلى يومنا هذا ! والقرآن يرد على هذا الحسبان بعدم جمع العظام مؤكداً وقوعه « أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه ؟ بلى قادرين على أن نسوي بنانه » والبنان أطراف الأصابع ، والنص يؤكد عملية جمع العظام ، بما هو أرقى من مجرد جمعها ، وهو تسوية البنان ، وتركيبه في موضعه كما كان ! وهي كناية عن اعـــاده التكوين الانساني بأدق ما فيه ، وإكمانه بحيث لا تضيع منه بنان ، ولا تختل من مكانها .

إن الذي خلق أول مرة لقادر على اعادة الحياة . بلى سبحانه ! فإنه لقادر على أن يحيي الموتى ، فانه لقادر على النشأة الأخرى ، بلى سبحانه فإنه لقادر على النشأة الأخرى ! بلى سبحانه ! وما يملك الانسان إلا أن يخشع أمام هذه الحقيقة التي تفرض نفسها فرضاً .

إن الله الذي أنشأ الانسان ورعاه لقادر على رجعه إلى الحياة بعد الموت ، وإلى التجدد بعد البلى . « فلينظر الانسان مِمَّ خُلِق ، خُلِق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر » هناك تبلى السرائر المكنونة ، المطوية على الأسرار المحجوبة .. يوم تبلى وتختبر ، وتتكشف وتظهر كما ينفذ الحافظ إلى النفس المغلقة بالسواتر ! كذلك تبلى السرائر يوم يتجرد الانسان من كل قوة ومن كل ناصر . ما له من قوة في ذاته ، وما له من ناصر خارج ذاته .

٤ — فردية التبعة

انطلقت البشرية من هناك ، من عند ربها سبحانه ، انطلقت إلى الأرض ، تعمل وتسعى ، وتكد وتشقى ، وتصلح وتفسد ، وتعمر وتخرب ، وتتنافس وتتقاتل ، وتكدح الكدح الذي لا ينجو منه شقي ولا سعيد ، ثم ها هي ذي تؤوب ، ها هي ذي راجعة إلى ربها الذي أطلقها في هذا المجال ، ها هي ذي تحمل ما كسبت طوال الرحلة المرسومة من ورد وشوك ، من غال ورخيص ، من ثمين وزهيد ، من خير وشر ، ومن حسنات وسيئات .

ها هي ذي تعود في أصيل اليوم ، فقد انطلقت في مطلعه ، ها هي ذي عائدة إلى ربها بما معها موقورة الظهور بالأحمال ، تطلع في الطريق وقد بلغ منها الجهد ، وأضناها المسير ، حتى إذا عادت إلى نقطة المنطلق وضع كل منهـا حمله أمام الميزان ، ووقف يرتقب في خشية ووجل ، إن كل فرد قد عاد بحصيلته فرداً ، إن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ، وكل فرد على حدة يلاقي حسابه ، ويلقى جزاءه . يقول سبحانه : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد » ، لقد جاءت هذه الرسالة تعلق رشد البشرية وتضع على كاهلها عبء الاختيار ، وتعلن مبدأ التبعة الفردية ولمن شاء أن يختار . وحقيقة كبيرة ، حقيقة فردية التبعة ،

والجزاء الفردي الذي لا يغني فيه أحد عن أحد شيئاً . « ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى » .

وحقيقة فردية التبعة والجزاء ذات أثر حاسم في الشعور الأخلاقي ، وفي السلوك العملي سواء ، فشعور كل فرد بأنه مجزي بعمله ، لا يؤاخذ بكسب غيره ، ولا يتخلص هو من كسبه ، عامل قوي في يقظته لمحاسبة نفسه قبل أن تحاسب ! مع التخلي عن كل أمل خادع في أن ينفعه أحد بشيء ، أو أن يحمل عنه أحد شيئاً . « فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً » .

وقد ضرب الله بذلك مثلاً : « ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين » .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية «وأنذر عشيرتك الأقربين» دعا رسول الله ﷺ قريشاً ، فاجتمعوا ، فعمّ وخصّ ، فقال : يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار ، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً [1] .

كما أنه — في الوقت ذاته — عامل مطمئن فلا يقلق الفرد خيفة أن يؤخذ بجريرة الجماعة ، فيطيش ويبئس من جدوى عمله الفردي الطيب . ما دام قد أدى واجبه في النصح للجماعة ومحاولة ردها عن الضلال بما يملك من وسيلة .

إن الله سبحانه لا يحاسب الناس جملة بالقائمة ! إنما يحاسبهم فرداً فرداً ، كل على عمله وفي حدود واجبه ، ومن واجب الفرد أن ينصح وأن يحاول الاصلاح غاية جهده فإذا قام بقسطه هذا فلا عليه من السوء في الجماعة التي يعيش فيها ، فإنما هو محاسب على إحسانه ، كذلك لن ينفعه صلاح الجماعة إذا كان هو بذاته غير صالح ، فالله لا يحاسب عباده بالقائمة .

---

(١) رواه مسلم والبخاري والترمذي والنسائي .

إن كل نفس حاملة حملها ، فلا تحمل نفس حمل أخرى : « ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » .

وحين تثقل نفس بما تحمل ثم تدعو أقرب الأقرباء ليحمل عنها شيئاً ، فلن تجد من يلبي دعاءها ويرفع عنها شيئاً مما يثقلها .

إنه مشهد القافلة كل من فيها يحمل أثقاله ويمضي في طريقه ، حتى يقف أمام الميزان والوزان ! وهي في وقفتها يبدو على من فيها الجهد والاعياء . واهتمام كل بحمله وثقله وانشغاله عن البعداء والأقرباء ، والله هو المحاسب فلا يذهب عمل صالح ، ولا يفلت عمل سيء ، ولا يوكل بالحكم والجزاء إلى غيره ممن يميلون أو ينسون أو يهملون .

ذلك يوم تشغل كل نفس بأمرها ولا تتلفت إلى سواها . « يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون » ، وهو تعبير يلقي ظل الهول الذي يشغل كل امرىء بنفسه ، ويجادل عنها لعلها تنجو من العذاب . ولا غناء في انشغال ولا جدال كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ، فالتبعة فردية ، والحساب شخصي ، وكل نفس مسؤولة عن نفسها ، ولا تغني نفس عن نفس شيئاً ، « واتقوا يوماً لاتجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون » .

هذا هو المبدأ الاسلامي العظيم ، مبدأ التبعة الفردية القائمة على الارادة والتميز من الانسان ، وعلى العدل المطلق من الله ، وهو أقوم المبادىء التي تشعر الانسان بكرامته ، والتي تستجيش اليقظة الدائمة في ضميره ، وكلاهما عامل من عوامل التربية ، ولا شفاعة تنفع يومئذ من لم يقدم ايماناً وعملاً صالحاً ، ولا فدية تؤخذ منه للتجاوز عن كفره ومعصيته ، فما من ناصر يعصمهم من الله ، وينجيهم من عذابه .

فردية التبعة فلا تنال نفس إلا ما كسبت ، ولا تحمل نفس إلا ما اكتسبت .

« لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ، فردية التبعة ، ورجعة كل انسان إلى ربه ، بصحيفته الخاصة ، وما قيد فيها له أو عليه ، فلا يحيل على أحد ، ولا ينتظرعون أحد ، ورجعة الناس إلى ربهم فرادى من شأنها — حين يستيقنها القلب — أن تجعل كل

فرد وحدة ايجابية لا تنزل عن حق الله فيها لأحد من عباده إلا بالحق ، وتقف كل انسان مدافعاً عن حق الله فيه تجاه كل إغراء ، وكل طغيان ، وكل ضلال وكل فساد ، فهو مسؤول عن نفسه هذه وعن حق الله فيها - وحق الله فيها هو طاعته في كل ما أمر به وفي كل ما نهى عنه ، وعبوديتها له وحده شعوراً وسلوكاً - فإذا فرّط في هذا الحق لأحد من العبيد تحت الاغراء والاضلال أو تحت القهر والطغيان - إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان - فما أحد من تلك العبيد يدافع عنه يوم القيامة ولا شافع له ؛وما أحد من تلك العبيد يحامل عنه شيئاً من وزره ولا ناصر له من الله في اليوم الآخر . ومن ثم يستأسد كل إنسان في الدفع عن نفسه والدفاع عن حق الله فيها ، ما دام هو الذي سيلقى جزاءه مفرداً وحيداً !

ولا خوف من هذه الفردية - في هذا المقام - فمن مقتضيات الايمان أن ينهض كل فرد في الجماعة بحق الجماعة عليه ، بوصفه طرَفاً من حق الله في نفسه ، فهو مأمور أن يتكافل مع الجماعة في ماله وكسبه ، وفي جهده ونصحه ، وفي إحقاق الحق في المجتمع وإزهاق الباطل ، وفي تثبيت الخير والبر وإزاحة الشر والنكر ، وكل أولئك يحسب له أو عليه في صحيفته يوم يلقى الله فرداً فيتلقى هنالك جزاءه . « ومن يكسب إثماً فانما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً » وليست هناك كفارة غير الكفارة التي تؤديها النفس عن نفسها ، فالاسلام يقرر فردية التبعة ، وهي القاعدة التي يقوم عليها التصور الاسلامي في الجزاء : « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها » .

القاعدة التي لا تتغير في الدنيا وفي الآخرة ، والتي تجعل عمل الانسان كله له ، بكل ثماره ونتائجه ، وتجعل الجزاء ثمرة طبيعية للعمل ، منه تنتج ، وبه تتكيف ، وتجعل الانسان مسؤولاً عن نفسه إن شاء أحسن اليها ، وإن شاء أساء ، فلا يلومن إلا نفسه حين يحق عليه الجزاء ، فهي التبعة الفردية التي تربط كل إنسان بنفسه ،إن اهتدى فلها وإن ضل فعليها : « من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى » ، وما من نفس تحمل وزر أخرى ، وما من أحد يخفف حمل أحد ، إنما يُسأل كل عن عمله ويُجزى كل بعمله « ولا يسأل حميم حميماً » .

فهول ذلك اليوم يقطع أواصر الرحم والنسب ، ويشغل الوالد عن الولد، ويحول بين المولود والوالد ، وتقف كل نفس فيه وحيدة فريدة ، مجردة من كل عون ومن كل سند ، موحشة من كل قربى ومن كل وشيجة . « يا أيها الناس اتقوا ربكم ، واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ، إن وعد الله حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور » .

تتقطع أواصر القربى والدم ، ووشائج الرحم والنسب بين الوالد ومَنْ وَلد ، وبين المولود والوالد ، وما يستقل كل بشأنه ، فلا يجزي أحد عن أحد ، ولا ينفع أحداً إلا عمله وكسبه . ما يكون هذا كله إلا لهول لا نظير له في مألوف الناس ، فالدعوة هنا إلى تقوى الله تجيء في موضعها الذي فيه تستجاب . .

إن وعد الله حق ، فلا يخلف ولا يتخلف ، ولا مفر من مواجهة هذا الهول العصيب . ولا مفر من الحساب الدقيق والجزاء العادل ، الذي لا يغني فيه والد عن ولد ولا مولود عن والد فكل فرد مأخوذ بعمله محاسب على كسبه ولا يحمل أحد عبء أحد . فلكل وعيئه والمرجع في النهاية إلى الله دون سواه ، ولا مهرب منه ولا ملجأ عند غيره ولا يخفى عليه من أمركم . .

هذه هي العاقبة . . (ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إليه مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور) . .

هذا هو مفرق الطريق ولكل أن يختار عن بينة وعن تدبر وبعد العلم والتفكير : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون » . إنها فردية التبعة وعدالة الجزاء . فلا تحمل نفس حمل أخرى ولا تخفيفاً عن نفس ولا تثقيلاً على أخرى « ألا تزر وازرة وزر أخرى » فلا تملك نفس أن تخفف من حملها ووزرها . لا تملك نفس أن تتطوع فتحمل عن نفس شيئاً ، « وأن ليس للانسان إلا ما سعى » كذلك فما يحسب للانسان إلا كسبه وعمله ، لا يُزاد عليه شيء من عمل غيره ولا ينقص منه شيء لينال غيره . وهذه الحياة الدنيا هي الفرصة المعطاة له ليعمل ويسعى . فإذا مات ذهبت

الفرصة وانقطع العمل إلا ما نصّ عليه حديث رسول الله ﷺ في قوله : « من ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده ، أو علم يُنتفع به »[1]

ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي رحمه الله ومن اتبعه أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم . ولهـذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ ـ أمته ولا حثّهم عليه ، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء . ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم ولو كان خيراً لسبقونا إليه . وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ولا يتصرف به بأنواع الأقيسة والآراء . فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولها ومنصوص من الشارع عليها . (ابن كثير في التفسير)

« وأن سعيه سوف يُرى » فلن يضيع شيء من السعي والعمل والكسب ، ولن يغيب شيء عن علم الله وميزانه الدقيق . وسينال كل امرىء جزاء سعيه وافياً كاملاً لا نقص فيه ولا ظلم . وكذلك يتحدد مبدأ فردية التبعة ، إلى جانب عدالة الجزاء فتتحقق للانسان قيمته الإنسانية . القائمة على اعتباره مخلوقاً راشداً مسؤولاً مؤتمناً على نفسه ، كريماً تتاح له الفرصة للعمل ثم يؤخذ بما عمل،وتتحقق له كذلك الطمأنينة على عدالة الجزاء . عدالة مطلقة لا يميل بها الهوى ولا يقعد بها التصور ، ولا ينقص منها الجهل بحقائق الأمور . إن المؤمن يعمل ويرجو الآخرة ، يزرع هنا وينتظر الحصاد هناك . وهناك تنقطع الوشائج « لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم . يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير » .

فلمسة قلبه بما يكون في الآخرة من تقطيع وشائج القربى كلها إذا تقطعت وشيجة العقيدة من شأنها أن تهون عنده شأن هذه الوشائج في فترة الحياة الدنيا القصيرة ، وتوجهه إلى طلب الوشيجة الدائمة التي لا تنقطع في دنيا ولا في آخرة .

إن الناس في همّ شاغل هناك في الآخرة لا يدع لأحد منهم أن يتلفت خارج نفسه ، ولا يجد فسحة في شعوره لغيره فلقد قطع الهول المروّع جميع الوشائج ،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة .

وحبس النفوس على همها لا يتعداه ، وإنهـــم ليعرضون بعضهم على بعض .. « يُبصّرونهم » .. كأنما قصداً وعمداً ! ولكن لكل منهم همّه ، ولكل ضمير منهم شغله . فلا يجس في خاطر صديق أن يسأل صديق عن حاله ، ولا يسأله عونه . فالكرب يلف الجميع ، والهول يغشى الجميع ..

فما بال المجرم ؟ « يُبصّرونهـــم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التي تؤيه ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه . كلا إنهـــا لظى نزاعة للشوى » .

فما بال المجرم ؟ إنه الهول ليأخذ بحسه ، وإن الرعب ليذهب بنفسه ، وانه ليود لو يفتدي من عذاب يومئذ بأعز الناس عليه ، ممن كان يفتديهم بنفسه في الحيـــاة ، ويناضل عنهم ، ويعيش لهم .. ببنيه . وزوجه . وأخيه . وعشيرته القريبة التي تؤويه وتحميه ، بل إن لهفته على النجاة لتفقده الشعور بغيره على الاطلاق ، فيود لو يفتدي بمن في الأرض جميعاً ثم ينجيه ، وهي صورة للهفة الطاغية والفزع المذهل والرغبـــة الجامحة في الافلات .

صورة مبطنة بالهول ، مغمورة بالكرب ، موشاة بالفزع .. وبينما المجرم في هذه الحال ، يتمنى ذلك المحـال ، يسمع ما ييئس ويقنط من كل بارقة من أمل ، أو كل حديث خادع من النفس . كما يسمع الملأ جميعاً حقيقة الموقف وما يجري فيه « كلا إنها لظى نزاعة للشوى » . إنه مشهد تطير له النفس شعاعاً ، بعدما أذهلها كرب الموقف وهـوله .. « كلا » .. في ردع عن تلك الأماني المستحيلة في الافتداء بالبنين والزوج والأخ والعشيرة ومن في الأرض جميعاً ..

إنهـا تبعة كل نفس لذاتها وعلى ذاتها ، وللنفوس أن تختار طريقها ومصيرها ، وهي مأخوذة بما تكسبه باختيارها ، مرهونة بأعمالها وأوزارها ، « لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر . كل نفس بما كسبت رهينة » ..

فكل فرد يحمل همّ نفسه وتبعتها ، ويضع نفسه حيث شاء أن يضعها ، يتقدم بها أو يتأخر ، ويكرمها أو يهينها . فهي رهينة بما تكسب ، مقيدة بما تفعل . وقد بيّن الله طريقه لتسلك إليه على بصيرة .

والهول هناك يفزع النفس ويفصلها عن محيطها ويستبد بها استبداداً . فلكلّ نفسه وشأنه ، ولديه الكفاية من الهمّ الخاص به ، والذي لا يدع له فضلة من وعي أو جهد ، « لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » . .

إنه الهمّ الذي يُشغل الحسّ والضمير . ذلك حال الخلق جميعاً في هول ذلك اليوم .

٥ — فرصة النجاة

يقول الله سبحانه : . . « وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون . واتبعو أحسنَ ما أُنزل اليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون » . .

الإنابة . والاسلام . والعودة إلى أفياء الطاعة وظلال الاستسلام . فمن أراد الأوبة من الشاردين فليؤب . ومن أراد الإنابة من الضالين فلينب . ومن أراد الإستسلام من العصاة فليستسلم . وليأت . ليأت وليدخل فالباب مفتوح . والفيء والظل والندى والرخاء : كله وراء الباب لا حاجب دونه ولا حسيب . . وهيا . هيا قبل فوات الأوان . فما هنالك من نصير . هيا فالوقت غير مضمون . وقد يفصل في الأمر وتغلق الأبواب في أية لحظة من لحظات الليل والنهار . هيا . هيا . قبل أن تتحسروا على فوات الفرصة ، وعلى التفريط في حق الله ، وعلى السخرية بوعد الله : « أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين » ، أو تقول إن الله كتب علي الضلال ولو كتب علي الهدى لاهتديت واتقيت « أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين » . .

وهي علاقة لا أصل لها . فالفرصة ها هي ذي سانحة ، ووسائل الهدى ما تزال حاضرة . وباب التوبة ها هو ذا مفتوح !

« أو تقول حين ترى العذاب : لو أن لي كرة فأكون من المحسنين » ، وهي أمنية لا تنال . فإذا انتهت هذه الحياة فلا كرة ولا رجوع . وها أنتم أولاء في دار العمل . وهي فرصة واحدة إذا انقضت لا تعود . وستسألون عنها مع التبكيت

والترذيل : « بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين » . فهناك لا تنفع المعذرة « يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار » .

والظالمون سيكون الذل هو مظهرهم البارز في يوم الجزاء « وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون : هل إلى مَرَدٍّ من سبيل ؟ وتراهم يُعرضون عليها خاشعين من الذل ، ينظرون من طرف خفي ، وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ألا إن الظالمين في عذاب مقيم » .

إنهم يرون العذاب ، فتتهاوى كبرياؤهم ، ويتساءلون في انكسار : « هل إلى مرد من سبيل ؟ » في هذه الصيغة الموحية باليأس مع اللهفة ، والانهيار مع التطلع إلى أية بارقة للخلاص ! وهم يعرضون على النار خاشعين لا من التقوى ولا من الحياء، ولكن من الذل والهوان ؟ وهم يعرضون منكسي الأبصار لا يرفعون أعينهم من الذل والعار « ينظرون من طرف خفي » ، وهي صورة شاخصة ذليلة . ثم يعرض الهول النفسي الذي يفرض الصمت والكظم « هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون » فالهول هنا يكمن في الصمت الرهيب ، والكبت الرعيب ، والخشوع المهيب ، الذي لا يتخلله كلام ولا يقطعه اعتذار فقد انقضى وقت الجدل ومضى وقت الاعتذار . وفي مشاهد أخرى يذكر حسرتهم وندامتهم وحلفهم ومعاذيرهم ، واليوم طويل يكون فيه هذا ويكون فيه ذاك ، على ما قال ابن عباس رضي الله عنه — ولكنه هنا يثبت هذه اللقطة الصامتة الرهيبة . « هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين » .

هذا يوم الفصل لا يوم الاعتذار ، فإن كان لكم تدبير فدبروه ، وإن كان لكم قدرة على شيء فافعلوه ، ولا تدبير ولا قدرة ، إنما هو الصمت الكظيم على التأنيب الأليم . « ويل يومئذ للمكذبين » ، « فبأي حديث بعده يؤمنون » والذي لا يؤمن بهذا الحديث الذي يهز الرواسي ، وبهذه الهزات التي تزلزل الجبال ، لا يؤمن بحديث بعده أبداً ، إنما هو الشقاء والتعاسة والمصير البائس، والويل المدخر لهذا الشقي المتعوس.

إن يوم القيامة هو يوم الجزاء لا يوم الاعتذار يقول الله سبحانه : « يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون » .

هاهم أولاء الذين كفروا يعتذرون وهم على جهنم وقوف ، فلا يُؤْبَه لاعتذارهم ، بل يُجْبَهون بالتيئيس . لا تعتذروا فليس اليوم يوم اعتذار ، إنما هو يوم الجزاء على ما كان من عمل ، وقد عملتم ما تجزون عليه بهذه النار . « فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون » ، فلا معذرة منهم تقبل ولا يعتب عليهم فيما فعلوه ، أو يطلب اليهم الاعتذار ، فاليوم يوم العقاب لا يوم العتاب .

إن القرآن يعرض مشهداً من مشاهد يوم القيامة حين يعلن المجرمون يقينهم بالآخرة ويقينهم بالحق الذي جاءتهم به الدعوة ، ويقولون الكلمة التي لو قالوها في الدنيا لفتحت لهم أبواب الجنة ، ولكنها في موقفهم ذاك لا تجدي شيئاً ولا تفيد . لعل هذا المشهد أن يوقظهم — قبل فوات الأوان — لقول الكلمة التي سيقولونها في الموقف العصيب فيقولوها الآن في وقتها المطلوب : « ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون » .

إنه مشهد الحزي والاعتراف بالخطيئة ، والاقرار بالحق الذي جحدوه ، وإعلان اليقين بما شكّوا منه ، وطلب العودة إلى الأرض لإصلاح ما فات في الحياة الأولى . وهم ناكسوا رؤوسهم خجلاً وخزياً ، عند ربهم ، الذين كانوا يكفرون بلقائه في الدنيا. ولكن هذا كله يجيء بعد فوات الأوان حيث لا يجدي اعتراف ولا اعلان .

وهؤلاء المجرمون المعروضون على ربهم وهم ناكسوا رؤوسهم ، هؤلاء ممن حق القول . « ذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا » . يرمكم هذا الحاضر . ذوقوا بسبب نسيانكم لقاء هذا اليوم ، وإهمالكم الاستعداد له وأنتم في فسحة من الوقت ، ذوقوا : « إنا نسيناكم » ، والله لا ينسى أحداً ، ولكنهم يعاملون معاملة المهملين المنسيين ، معاملة فيها مهانة ، وفيها إهمال وفيها ازدراء .

والمشهد يُعرض وراء المشهد لعلهم يستيقظون ويعودون : « ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب . وقالوا آمنا به وأنّى لهم التناوش من مكان بعيد؟ وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد . وحيل بينهم وبين مايشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل ، إنهم كانوا في شك مريب » .

ولو ترى فالمشهد معروض للأنظار ، إذ فزعوا من الهول الذي فوجئوا به وكأنما أرادوا الافلات ، ولا إفلات وأخذوا من مكان قريب ، ولم يبعدوا في محاولتهم البائسة وحركتهم المذهولة . وقالوا آمنا به ، الآن بعد فوات الأوان ، وكيف يتناولون الايمان من مكانهم هذا ، ومكان الايمان بعيد عنهم فقد كان ذلك في الدنيا ، فضيّعوه وقد كفروا به من قبل ، فانتهى الأمر ، ولم يعد لهم أن يحاولوه اليوم . إن حوادث القيامة وأهوالها هي التي دعتهم لهذا الايمان ، دعتهم للتذكرة « كلا إذا دُكّت الأرض دكاً دكاً وجاء ربك والملك صفاً صفاً وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الانسان وأنّى له الذكرى يقول يا ليتني قدمت لحياتي » .

ودك الأرض ، تحطيم معالمها وتسويتها ، وهو أحد الانقلابات الكونية التي تقع في يوم القيامة ، ويرتسم من وراء هذه الآيات الشديدة الأسر ، مشهد ترتجف له القلوب وتخشع له الأبصار . والأرض تدك دكاً !

والجبار المتكبر يتجلى ويتولى الحكم والفصل ، وتقف الملائكة صفاً صفاً ، ثم يُجاء بجهنم فتقف هي الأخرى متأهبة . « يومئذ يتذكر الانسان » ، يتذكر الانسان الحق ويتعظ بما يرى ولكن لقد فات الأوان . « وأنّى له الذكرى » ، ولقد مضى عهد الذكرى ، فما عادت تجدي هنا في دار الجزاء أحداً ، وإن هي إلا الحسرة على فوات الفرصة في دار العمل في الحياة الدنيا ، وحين تتجلى له هذه الحقيقة يقول : ياليتي قدمت لحياتي . يا ليتني قدمت شيئاً لحياتي هنا ، فهي الحياة الحقيقية التي تستحق اسم الحياة ، وهي التي تستأهل الاستعداد والتقدمة والادخار لهـــا ، يا ليتني ، أمنية فيها الحسرة الظاهرة ، وهي أقصى ما يملكه الانسان في الاخرة ، ثم يصور مصيره بعد الحسرة الفاجعة والتمنيات الضائعة « فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد » .

إن الله القهار الجبار الذي يعذب يومئذ عذابه الفذ الذي لا يملك مثله أحد ، والذي يوثق وثاقه الفذ الذي لا يوثق مثله أحد . وعذاب الله ووثاقه لا شبيه من عذاب البشر ووثاقهم ، أو من عذاب الخلق جميعاً ووثاقهم ، إنه الهول المروع الذي يتجاوز كل تصور .

إن الحياة الدنيا متاع ، متاع مقدر بدقة وإحكام ، ولكنه متاع ، متاع ينتهي

إلى أجله ، فإذا جاءت الطامة الكبرى غطّت على كل شيء ، وطمت كل شيء ، على المتاع الموقوت ، وعلى الكون المتين المقدر المنظم ، على السماء المبنية والأرض المدحورة والجبال المرساة والأحياء والحياة وعلى كل مكان من مصارع ومواقع فهي أكبر من هذا كله ، وهي تطم على هذا كله .

عندئذ يتذكر الانسان ما سعى يتذكر سعيه ويستحضره ، إن كانت أحداث الحياة ، وشواغل المتاع أغفلته عنه وأنسته إياه ، يتذكره ويستحضره ولكن حيث لا يفيده التذكر والاستحضار إلا الحسرة والأسى وتصور ما وراءه من العـــذاب والبلوى ! ومن ثم تبرز الجحيم ، « وبُرِّزت الجحيم لمن يرى » فهي بارزة مكشوفة لكل ذي نظر ، عندئذ تختلف المصائر والعواقب ، « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا» والطغيان أشمل من معناه القريب . فهو وصف لكل من يتجاوز الحق والهدى،ومداه أوسع من الطغاة ذوي السلطان والجبروت ، حيث يشمل كل متجاوز للهدى ، وكل من آثر الحياة الدنيا ، واختارها على الآخرة ، فيعمل لها وحدها ، غير حاسب للآخرة حساباً . واعتبار الاخرة هو الذي يقيم الموازين في يد الإنسان وضميره ، فإذا أهمل حساب الاخرة أو آثر عليها الدنيا اختلت كل الموازين في يده ، واختلت كل القيم في تقديره ، واختلت كل قواعد الشعور والسلوك في حياته ، وعُدَّ طاغياً وباغياً ومتجاوزاً للهدى ، فأما هذا فإن الجحيم هي المأوى ، « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هي المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى»

إن أحداث القيامة أمور هائلة رهيبة ، قَلَّ أن يتلقاها الحس إلا بهزة عميقة . فهناك يُشمِّر عن الساعد ويكشف فيه عن الساق ، ويشتد الكرب والضيق . « يوم يكشف عن ساق[1] ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون » .

---

(١) ساق الشيء أصله . قال الشيخ الكوثري فيما علّقه على « دفع شبهة التشبيه » لابن الجوزي ص ١٤ عند ذكر قوله تعالى « يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود فلا يستطيعون » قال رحمه الله تعالى : « في محاسن التأويل للعلامة جمال الدين القاسمي رحمه الله تعالى قال أبو سعيد الضرير : أي يكشف عن أصل الامر . وساقُ الشيء أصلُه الذي به قوامه . —

إنه تعبير عن الشدة والكرب حين يدعى هؤلاء المتكبرون إلى السجود فلا يمكن السجود ، إما لأن وقته قد فات ، وإما لأنهم كما وصفهم في موضع آخر يكونون : « مهطعين مقنعي رؤوسهم » ، و كأنّ أجسامهم وأعصابهم مشدودة من الهول على غير إرادة منهم ! وهو تعبير يشي بالكرب والعجز والتحدي المخيف .

هؤلاء المتكبرون المتبجحون ، والأبصار الخاشعة والذلة المرهقة هما المقابلان للهامات الشامخة والكبرياء المنفوخة . إنه موقف مرهق ذليل، وفي هذا الموقف يذكرهم بما جرهم إليه من إعراض واستكبار ، « وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون » .

= كساق الشجرة وساق الانسان . أي تظهر يوم القيامة حقائق الاشياء وأصولها . فالساق بمعنى أصل الامر وحقيقته ، استعارة من ساق الشجرة . انتهى كلام الكوثري .

وقال المفسر الآلوسي عليه الرحمة في روح المعاني ٩ : ١٤٦ « وقيل : ساقُ الشيء أصلُه الذي به قِوامُه ، كساق الشجرة وساق الانسان ، والمراد يوم يكشف عن أصل الامر فتظهر حقائق الامور وأصولها بحيث تصير عِيانا ، واليه يشير كلام الربيع بن أنس ، فقد أخرج عبد بن حُميد عنه أنه قال : في ذلك اليوم يكشف الغِطاء ، وكذا أخرجه البيهقي عن ابن عباس أيضا قال : حين يُكشَفُ الامر وتبدو الاعمال » . انتهى .

فالمعنى هنا : في ذلك اليوم الذي يلقى الله فيه عباده جميعا يكشف عن أصل الامر وحقيقته فيهم ، فيظهر ايمان المؤمن على حقيقته ، ونفاق المنافق على حقيقته ، وينتفي التدليس والخداع الذي كان من المنافقين في الدنيا .

فلذا يَخِرُّ المؤمنون لله سُجدا كما كانوا يسجدون له في الدنيا ، ولا يستطيع المنافقون السجود وقد كانوا في الدنيا يسجدون ولكن رياء وسُمعة ! ذلك لأن الآخرة دار الحق ، لا يقع فيها الا الحق والصدق دون تلبيس أو تدليس .

وانما بقي المنافقون مختلطين في ذلك اليوم بالمؤمنين ظنّا منهم أن نفاقهم يبقى مستورا في الآخرة كما كان مستورا في الدنيا ، وظنّا منهم أن تستّرهم بالمؤمنين ينفعهم في دار الحق كما كان ينفعهم في دار الدنيا جهلا منهم بحقيقة الآخرة والفرق ما بين الدارين . ولقد ظنوا أيضا أنهم اذا تأخروا واستبقوا أنفسهم مع المؤمنين الصادقين أفادهم ذلك بناء على ما كانوا يظهرونه في الدنيا ، فلما امتحنهم الله بالسجود له سبحانه فما استطاعوا : تميّز حينذاك الحق من الباطل والمؤمن من المنافق ، والساجد من الجاحد . نُسأل الله السلامة .

وفي صحيح مسلم ٣ : ٢٧ من حديث أبي سعيد الخدري قوله صلى الله عليه وسلم : « فيَكشف عن ساق ، فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه الا أذِنَ الله له بالسجود ــ أي سهّل له وهوّن عليه ــ ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء الا جعل الله ظهره طبقة واحدة ، كلما أراد أن يسجد خَرّ على قفاه » .

قادرون على السجود . فكانوا يأبون ويستكبرون ، كانوا ، فهم الآن في المشهد المرهق الذليل ، والدنيا وراءهم ، وهم الان يدعون إلى السجود فلا يستطيعون ، وبينما هم في الكرب يجيئهم التهديد الرعيب الذي يهد القلوب « فذرني ومن يكذب بهذا الحديث » وهو تهديد مزلزل ، والجبار القوي المتين يقول للرسول ﷺ : خَلِّ بيني وبين من يكذب بهذا الحديث . وذرني لحربه فأنا به كفيل ومن هو هذا الذي يكذب ؟ إنه ذلك المخلوق الصغير الهزيل المسكين الضعيف ! هذه النملة المضعوفة ، بل هذه الهباءة المنثورة ، بل هذا العدم الذي لا يعني شيئاً أمام جبروت الجبار القهار العظيم !

فيامحمد ، خَلِّ بيني وبين هذا المخلوق ، فالحرب معي ، وهذا المخلوق عدوي ، وأنا سأتولى أمره فدعه لي ، وذرني معه ، أي هول مزلزل للمكذبين .

« سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملي لهم إن كيدي متين » وإن شأن المكذبين ، وأهل الأرض أجمعين ، لأهون وأصغر من أن يدبر الله لهم هذه التدابير ، ولكنه سبحانه يحذرهم نفسه ليدركوا أنفسهم قبل فوات الأوان، وليعلموا أن الأمان الظاهر الذي يدَعه لهم هو الفخ الذي يقعون فيه وهم غارّون ، وإن إمهالهم على الظلم والبغي والاعراض والضلال هو استدراج لهم إلى أسوأ مصير . وأنه تدبير من الله ليحملوا أوزارهم كاملة ، ويأتوا إلى الموقف مثقلين بالذنوب ، مستحقين للخزي والرهق والتعذيب ، وليس أكبر من التحذير ، وكشف الاستدراج والتدبير ، عدلاً ولارحمة. والله سبحانه يقدم لأعدائه وأعداء دينه ورسوله عدله ورحمته في هذا التحذير وذلك النذير وهم بعد ذلك وما يختارون لأنفسهم ، فقد كشف القناع ووضحت الأمور . إنه سبحانه يمهل ولا يهمل ، ويملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، فَلِمَ لا يخيفهم ما ينتظرهم فيه . فهل اطلعوا على الغيب وكتبوه وعرفوه أو أنهم هم الذين كتبوا ما فيه ، فكتبوه ضامناً لما يشتهون ، « أم عندهم الغيب فهم يكتبون » ، إن الله سبحانه يرسم لهؤلاء مشهداً كئيباً مكروباً : « ولو ترى إذ وُقِفُوا على النار فقالوا : ياليتنا نُرَدُّ ولانكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ! بل بدا لهم ما كانوا يُخفون من قبل ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون » .

إنهم موقوفون على النار محبوسون عليها ، وهي تواجههم بهول المصير الرهيب ، وهم يتخافتون متخاذلين ، ويتهاوون متحسرين ، يتمنون لو يُردون إلى الدنيا فيكون لهم موقف غير ذلك الموقف ، الذي انتهى بهم إلى هذا المصير ، فيُردون عن هذا التمني بالتصغير والتحقير ، إن هؤلاء ترتسم في قلوبهم الندم والحسرة .. إن القرآن يخاطب بها الفطر الجاسية ، ويهز بها هذه الفطرة هزاً ، لعـــلّ الركام الذي رانَ عليها يتساقط ، ولعل مغاليقها الصلدة تتفتح ، ولعلها تفيء إلى تدبر هـذا القرآن قبل فوات الأوان .

إنه مشهد الاستخذاء والندامة والخزي والحسرة في مقابل الاعراض والجدال والنأي والادعاء العريض ، لو ترى ذلك المشهد ! لو تراهم وقد حبسوا على النار لايملكون الاعراض والتولي ! ولا يملكون الجدل والمغالطة ! لو ترى لرأيت مايهول ، ولرأيتهم يقولون : « يا ليتنا نُرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين »

إنهم يتمنون لو يُردون إلى الدنيا . وعندئذ فلن يكون منهم تكذيب ، وعندئذ سيكونون من المؤمنين ! ولكنها ليست سوى الأماني التي لا تكون ! على أنهم إنما يجهلون جِبلَّتهم . فهي جِبلَّة لاتؤمن . إن الله يعلم طبيعتهم ، ويعلم إصرارهم على باطلهم ، ويعلم أن رجفة الموقف الرهيب على النـــار هي التي أنطقت ألسنتهم بهذه الأماني وهذه الوعود .

وهكذا يصورهم القرآن .. « وإن الذين كفروا يُنادَوْن لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الايمان فتكفرون . قالوا : ربنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل » .

والمقت أشد الكره . وهم ينادَون من كل جانب . إن مقت الله لكم يوم كنتم تُدعون إلى الإيمان فتكفرون ، أشد من مقتكم لأنفسكم وأنتم تطلعون اليوم على ما قادتكم إليه من شر ونكر ، بكفرها وإعراضها عن دعوة الايمـــان ، قبل فوات الأوان ، وما أوجع هـذا التذكير وهذا التأنيب في ذلك الموقف المرهوب العصيب ! والآن وقد سقط عنهم غشاء الخداع والضلال يعرفون أن المتجه لله وحده فيتجهون « قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل »

وهي كلمة الذليل اليائس البائس . وقد كانوا يكفرون وينكرون . أحييتنا أول مرة فنفخت الروح في الموات فاذا هي حياة ، وإذا نحن أحياء ، ثم أحييتنا الأخرى بعد موتتنا ، فجئنا اليك ، وإنك لقادر على إخراجنا مما نحن فيه ، وقد اعترفنا بذنوبنا. فهل إلى خروج من سبيل ، بهذا التنكير الموحي باللهفة واليأس المرير .

إنها الآمال والأماني الضائعة يصورها القرآن ، « فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نُرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ، قد خسروا أنفسهم وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون» ولكن « يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون » ، والحسرة انفعال نفسي على حال مؤسفة لا يملك الانسان شيئاً حيالها ، سوى أن يتحسر وتتألم نفسه . والله سبحانه — لا يتحسر على العباد ، ولكنه يقرر أن حالة هؤلاء العباد مما يستحق حسرة المتحسرين ! فهي حال بائسة مؤسفة تنتهي بأصحابهـــا إلى شر وخيم وبلاء عظيم .

يا حسرة على العباد تتاح لهم فرصة النجاة فيعرضون عنها ، ويفتح الله لهم أبواب رحمته ، ولكنهم يتجافون أبواب الرحمة وهو يناديهم « استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مردَّ له من الله ، ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير »

٦ — بين الغفلة والهوى

إن الذين لا يحسبون حساب اليوم الآخر ، ويكذبون بيوم الحساب والجزاء ، ويرين على قلوبهم الاثم والمعصية ، إن هؤلاء إنما يتنافسون في مال أو متاع من متاع الأرض الزهيد ، يريد كل منهم أن يسبق اليه ، وأن يحصل على أكبر نصيب منه ، ومن ثم يظلم ويفجر ويأثم ويرتكب في سبيل متاع من متاع الأرض زائل .

وما في هذا العرض القريب الزهيد ينبغي التنافس ، إنما يكون التنافس في ذلك النعيم وفي ذلك التكريم ، « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » فهو مطلب يستحق المنافسة وهو أفق يستحق السباق ، وهو غاية تستحق الغلاب ، والذين يتنافسون في شيء من

أشياء الأرض مهما كبر وجل وارتفع وعظم ، إنما يتنافسون في حقير فان قريب والدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة ، ولكن الآخرة ثقيلة في ميزانه ، فهي إذن حقيقة تستحق المنافسة فيها والمسابقة.

ومن عجب أن التنـــافس في أمر الآخرة يرتفع بأرواح المتنافسين جميعاً ، بينما التنافس في أمر الدنيا ينحط بهم جميعاً ، والسعي لنعيم الاخرة يصلح الأرض ويعمرها ويطهرها للجميع ، والسعي لعرض الدنيا يدع الأرض مستنقعاً وبيئاً تأكل فيه الديدان بعضها البعض ، أو تنهش فيه الهوام والحشرات جلود الأبرار الطيبين .

والتنافس في نعيم الآخرة لا يدع الأرض خراباً بلقعاً كما قد يتصور بعض المنحرفين إنما يجعل الاسلام الدنيا مزرعة الآخرة ، ويجعل القيام بخلافة الأرض بالعمار مع الصلاح والتقوى وظيفة المؤمن الحق ، على أن يتوجه بهذه الخلافة إلى الله ، ويجعل منها عبادة له تحقق غاية وجوده ، كما قررها الله تعالى وهو يقول : « وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون » . وان قوله تعالى : « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » ، لهو توجيه يمد بأبصار أهل الأرض وقلوبهم وراء رقعة الأرض الصغيرة الزهيدة ، بينما هم يعمرون الأرض ويقومون بالخلافة فيها ، ويرفعها إلى آفاق أرفع وأطهر من المستنقع الآسن . بينما هم يطهرون المستنقع وينظفونه ! إن عمر المرء في هذه العاجلة محدود ، وعمره في الآجلة لا يعلم نهايته إلا الله ، وان متاع هذه الأرض في ذاته محدود ، ومتاع الجنة لا تحده تصورات البشر ، وأن مستوى النعيم في هذه الدنيا معروف ومستوى النعيم هناك يليق بالخـــلود ! فأين مجال من مجال ؟ وأين غاية من غاية ؟ حتى بحساب الربح والخسارة فيما يعهد البشر من الحساب ؟ ألا إن السباق إلى هناك ، « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » كما أن الله سبحانه وتعالى يبين أن الانسان يقطع رحلة الحياة كلها كدحاً وجهداً ، ومن ثم إلى الله ، « يا أيها الانسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه » .

يا أيها الانسان إنك تقطع رحلة حياتك على الأرض كادحاً ، تحمل عبئك ، وتجهد جهدك ، وتشق طريقك ، لتصل في النهاية إلى ربك ، فإليه المرجع وإليه المآب ، بعد الكد والكدح والجهاد .

يا أيها الانسان ، إنك كادح حتى في متاعك ، فأنت لا تبلغه في هذه الأرض إلا بجهد و كد ، إن لم يكن جهد بدن و كد عمل ، فهو جهد تفكير و كد مشاعر ، الواجد والمحروم سواء ، إنما يختلف نوع الكدح ولون العناء ، وحقيقة الكدح هي المستقرة في حياة الانسان ، ثم النهاية في آخر المطاف إلى الله سواء .

يا أيها الانسان ، إنك لن تجد الراحة في الأرض أبداً ، إنما الراحة هناك ، لمن يقدم لها بالطاعة والاستسلام ، التعب واحد في الأرض والكدح واحد — وان اختلف لونه وطعمه — أما العاقبة فمختلفة عندما تصل إلى ربك ، فواحد إلى عناء دونه عناء الأرض ، وواحد إلى نعيم يمسح على آلام الأرض ، كأنه لم يكن كدح ولا كد .

يا أيها الانسان ، الذي امتاز بخصائص الانسان ، ألا فاختر لنفسك ما يليق بهذا الامتياز الذي خصك الله به ، اختر لنفسك الراحة من الكدح عندما تلقاه .

ولكن ما الذي يُعمي ، إنه الهوى ، الذي يتخذه بعض الناس إلهاً يتعبدونه ، يقول سبحانه : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ؟ » إن الله يشير إلى الهوى الذي يجعل منه بعضهم إلهاً يتعبده ، فيضل ضلالاً لا اهتداء بعده والعياذ بالله .

والقرآن يرسم نموذجاً عجيباً للنفس البشرية حين تترك الأصل الثابت ، وتتبع الهوى المتقلب ، وحين تتعبد هواها ، وتخضع له ، وتجعله مصدر تصوراتها وأحكامها ومشاعرها وتحركاتها ، وتقيمه إلهاً قاهراً لها ، مستولياً عليها ، تتلقى اشاراته المتقلبة بالطاعة والتسليم والقبول .

يرسم القرآن هذه الصورة ويعجب منها في استنكار شديد ، أفرأيته ؟ إنه عجيب يستحق الفرجة والتعجب ! وهو يستحق من الله أن يضله ، فلا يتداركه برحمة الهدى ، فما أبقى في قلبه مكاناً للهدى وهو يتعبّد هواه المريض .

لقد انطمست فيه تلك المنافذ التي يدخل منها النور ، وتلك المدارك التي يتسرب منها الهدى ، وتعطلت فيه أدوات الادراك بطاعته للهوى طاعة العبادة والتسليم .

ونهي النفس عن الهوى هو نقطة الارتكاز في دائرة الطاعة ، « وأما من خاف

مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى » ، والذي يخاف مقام ربه لا يقدم على معصية ، فإذا أقدم عليها بحكم ضعفه البشري حاده خوف هذا المقام الجليل إلى الندم والاستغفار والتوبة فظل في دائرة الطاعة .

إن الذي يجترح الخطيئة إنما يجترحها عادة وهو يلتذها ويستسيغها ، ويحسبها كسباً له — على معنى من المعاني — ولو أنها كانت كريهة في حسه ما اجترحها ، ولو كان يحس أنها خسارة ما أقدم عليها متحمساً ، وما تركها تملأ عليه نفسه ، وتحيط بعالمه ، لأنه خليق لو كرهها وأحسّ ما فيها من خسارة أن يهرب من ظلهـــا — حتى لو اندفع لارتكابها — وأن يستغفر منها ، ويلوذ إلى كنف غير كنفها ، وفي هذه الحالة لا تحيط به ، ولا تملأ عليه عالمه ، ولا تغلق عليه منافذ التوبة والتكفير ، يقول الله سبحانه : « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ، وأي تعبير ذهني عن اللجاجة في الخطيئة ما كان ليشع مثل هذا الظل الذي يُصور المجترح الآثم حبيس خطيئته : يعيش في إطارها ، ويتنفّس في جوها ، ويحيا معها ولهـــا ، عندئذ تغلق منافذ التوبة على النفس في سجن الخطيئة ، عندئذ يحق ذلك الجزاء العادل الحاسم ، « فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

إن من مقتضيات الايمان أن ينبثق من القلب في صورة العمل الصالح ، وهذا ما يجب أن يدركه من يدّعون الايمان ، وما أحوجنا — نحن الذين نقول إنا مسلمون أن نستيقن هذه الحقيقة : أن الايمان لا يكون حتى ينبثق منه العمل الصالح ، فأمـــا الذين يقولون : إنهم مسلمون ثم يتّبعون هواهم ، فهؤلاء ليس لهم من الايمان شيء ، وليس لهم من ثواب الله شيء ، وليس لهم من عذاب الله واق ، فالهوى هو الدافع القوي لكل طغيان ، وكل تجاوز ، وكل معصية ، وهو أساس البلوى ، وينبوع الشر ، وقلّ أن يُؤتى الانسان إلا من قِبَل الهوى ، فالجهل سهل علاجه ، ولكن الهوى بعد العلم هو آفة النفس التي تحتاج إلى جهاد شاق طويل الأمد لعلاجها ، والخوف من الله هو الحاجز الصلب أمام دفعات الهوى العنيفة ، وقلّ أن يثبت غير هذا الحاجز أمام دفعات

الهوى ، والذي يتحدث هو خالق هذه النفس العليم بدائها ، الخبير بدوائها وهو وحده الذي يعلم دروبها ومنحنياتها ، ويعلم أين تكمن أهواؤها وأدواؤها ، وكيف تطاردفي مكامنها ومخابئها .

ولم يكلف الله الانسان ألا يشتجر في نفسه الهوى ، فهو سبحانه — يعلم أن هـذا خارج طاقته ، ولكنه كلفه أن ينهاها ويكبحها ويمسك بزمامها ، وأن يستعين في هـذا بالخوف ، الخوف من مقام ربه الجليل العظيم المهيب ، وكتب له بهذا الجهاد الشاق ، الجنة مثابة ومأوى ، ذلك أن الله يعلم ضخامة هذا الجهاد ، وقيمته كذلك في تهذيب النفس البشرية وتقويمها ورفعها إلى المقـــام الأسنى ، « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى » .

إن الإنسان إنسان بهذا النهي ، وبهذا الجهاد ، وبهذا الارتفاع ، وليس انساناً بترك نفسه لهواها ، وإطاعة جواذبه إلى دركها ، بحجة أن هذا مركب في طبيعته ، فالذي أودع في نفسه الاستعداد لجيشان الهوى ، هو الذي أودعها الاستعداد للامساك بزمامه ونهى النفس عنه ، ورفعها عن جاذبيته ، وجعل له الجنة جزاء ومأوى حين ينتصر ويرتفع ويرقى .

وهناك حرية انسانية تليق بتكريم الله ، تلك هي حرية الانتصار على هوى النفس والانطلاق من أسر الشهوة والتصرف بها في توازن تثبت معـــه حرية الاختيار والتقدير الانساني .

وهناك حرية حيوانيـــة ، هي هزيمة الانسان أمام هواه ، وعبوديته لشهوته ، وانفلات الزمام من ارادته ، وهي حرية لا يهتف بها إلا مخلوق مهزوم الانسانية مستعبد يُلبس عبوديته رداء من الحرية .

إن الأول هو الذي ارتفع وارتقى وتهيأ للحياة الرفيعة الطليقة في جنة المأوى . أما الآخر فهو الذي ارتكس وانتكس وتهيأ للحياة في درك الجحيم حيث تهدر انسانيته ويرتد شيئاً توقد به النار التي وقودها الناس — من هذا الصنف — والحجارة ، وهـذه وتلك هي المصير الطبيعي للارتكاس والارتقاء في ميزان هذا الدين الذي يزن حقيقة

الأشياء وبعد هذا البيان يعدّ الله لهذا الانسان الحياة الذي تهيأ لها بارتكاسه في درك الجحيم وينذره بالويل ، « ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تُتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشّره بعذاب أليم » .

إنها مقابلة القرآن بالترذيل والتقبيح والتهديد والوعيد ، والتلويح بالعذاب الأليم المهين العظيم ، والويل : الهلاك ، والأفاك : الكذاب المارد على الكذب ، والأثيم الكثير المقارفة للاثم ، والتهديد شامل لكل من هذه صفته ، وهو تهديد صادر من الله القوي القاهر الجبار ، القادر على الهلاك والدمار ، الصادق الوعد والوعيد والانذار ، فهو تهديد رعيب مفزع مرهوب

هذا الأفاك الأثيم ، آية إفكه وعلامة إثمه ، أنه يصرعه الباطل ويستكبر على الحق ويتعالى عن الخضوع لآيات الله ، ولا يتأدب بالأدب اللائق مع الله ، يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً ، ألا إن هذه الصورة البغيضة تتكرر في كل جاهلية ، وتتكرر اليوم وغداً ، فكم في الأرض ، وبين من يقال أنهم مسلمون ، من يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها ، لأنها لا توافق هواه ، ولا تسير مع مألوفه ، ولا تعاونه على باطله ، ولا تقره على شره ، ولا تتمشى له مع اتجاهه ، فليأته الويل المنظور .

* * *